مجلة الرائد

العدد : ٢٣٣ الموافق في ذو القعدة ١٤٢٢ هجري ٢٠٠٢/١ ميلادي

عنوان المقال : إرهاب الإعلام !!	الكاتب : سمير الجملي

يتميز الإعلام في ألمانيا عموماً والمكتوب منه خصوصاً بكثافة شديدة في المادة المنشورة وكمٍّ ضخم ، ربما يكون مرده إلى أمور من بينها على الخصوص : تيسر إمكانات الطباعة والتوزيع ، مع وجود منافسة دعائية وتجارية حادة ، والجو القانوني الذي يعمل فيه هذا الإعلام ؛ فحرية التعبير والحرية الإعلامية لا تجد أساسها في قواعد قانونية عادية أو في إجراءات إدارية تنفيذية ، وإنما نجدها مباشرة في فصول القانون الأساسي الفدرالي ضمن ما يسميه المشرع الدستوري بالحقوق الأساسية ، فالفصل الخامس من القانون المذكور يُثبِّتُ بشكل واضح هذه الحرية التي يمكن (على خلاف ما عليه الأمر في دول أخرى) الاعتداد بها مباشرة أمام مصالح الدولة الإدارية والقضائية منها على السواء (ما نصت عليه الفقرة الثالثة من الفصل الأول) ، ويتواصل في الفصل نفسه تعميق هذا المعنى بمنع أي نوع من الرقابة (Zensurverbot) ، وقد جرى الاجتهاد القضائي لدى المحاكم العليا على إضفاء نوع من القدسية على حرية التعبير والإعلام ، غير قابلة تقريباً للمس ، فالمحكمة الدستورية تقدم في فتاواها هذا المبدأ على مبدأ عدم المس بالشخصية (Ehrenschutz) [1] وتعطيه أولوية الحماية على مبادىء قانونية أخرى .

أردت بهذه المقدمة النظرية معرفة الأرضية التي يقف عليها الإعلام الألماني قبل التعرض لتعاطي هذا الإعلام مع الأحداث الأخيرة التي هزت العالم بأسره ، ويبقى من اللازم الإشارة إلى نقطة مهمة وهي أن هذه الحرية في مجال التعبير والإعلام ينبغي أن تفهم في السياق الاجتماعي والسياسي والقانوني الذي تتميز به المجتمعات الغربية عموماً والمجتمع الألماني خصوصاً ، والذي ليس هذا مجال التفصيل فيه . وهكذا فرغم هذه الكثافة لا يحتاج الباحث في مجال الإعلام والمتابع لما كُتب ويُكتب هذه الأيام إلى كبير عناء للإمساك بمفاصل آلة الإعلام والخطوط العريضة التي تدور حولها . فالتقارير الإعلامية والتحاليل الإخبارية تتشابه في عرضها وفي ما تخلص إليه وما تريد تبليغه للقارئ وإقناعه به تشابهاً يكاد يكون كلياً تغيب معه أي جدلية فكرية أو تنوع في الطرح ، والأصوات التي حاولت أن تعبر عن رأي مخالف للاتجاه العام ، أو لنقل : للاتجاه المحدد لها ولو كان ذلك باحتشام وحذر شديد ، قُمعت بشكل صارخ وفاضح ، ولم تشفع لها المواد والفصول والضمانات آنفة الذكر ، كما سنبين فيما يأتي ، هذا إضافة إلى ما طبع الإعلام في ألمانيا من تبعية تكاد تكون مطلقة لدوائر الإعلام الأمريكية من جهة ،

وإلى رسالة تجمع الكل تقريباً يمكن قراءة مضمونها صراحة أو ضمناً وتتمثل في تشويه الإسلام ومهاجمته ، وتقديم المسلمين على أنهم قنابل موقوتة (Tickende Bomben) [٢] يجب الاحتياط منهم ، وتعريف المساجد على أنها محطات لصناعة الإرهاب والإرهابيين (Brutstaetten des Terrors) ، نقول هذا حتى وإن اتهمنا بالأخذ بنظرية المؤامرة أو الجهل والتخلف .

وقبل عرض الأمثلة المؤسسة لما سبق والدالة عليه من الإعلام الألماني أنبه إلى أن هذه التبعية الإعلامية المشار إليها تشمل حتى القمع ومحاربة الرأي الآخر ، فالتعتيم الإعلامي والإشارات إلى ضرورة تكميم الأفواه التي تُشكك من قريب أو بعيد في الطروحات الأمريكية فيما يتعلق بالأحداث في زمن العولمة الإعلامية بدأت من هناك من الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث سُرِّح صحافيون وإعلاميون كثيرون عبروا عن رأي مخالف لما هو سائد ، والأمثلة على ذلك كثيرة ولكن أذكر في هذا السياق الذي حصل حينما صرَّح الصحافي المعروف هناك (بيل ماهر Bill Maher) في برنامجه (Polically Incorrect) بأنه لا يمكن وصف منفذي هجومات ١١ سبتمبر بالجبن ، بل إن الولايات المتحدة الأمريكية هي الجبانة حيث ترسل صواريخ الكروز إلى أهدافها على بعد ٢٠٠٠ميل ، فقامت القيامة ولم تقعد ووصل الحد إلى أن يتدخل البيت الأبيض لينذر الإعلاميين بضرورة التقيد بالسياسة الإعلامية الأمريكية ، وحدث في بريطانيا ما يشبه ذلك تقريباً . أما في ألمانيا فبدا هذا الإرهاب الإعلامي في أكثر من مناسبة نَعرضُ منها إلى ثلاث قضايا بالشكل المختصر الآتي :

١- قضية (أولريش فيكارت Ulrich Wickart) ، فقد نشرت الكاتبة الهندية (Azudhati Roy) والتي تعتبر عند البعض " كاتبة المستضعفين في العالم الثالث " مقالاً [٥] تنتقد فيه السياسة الأمريكية وتقارن فيه بين الرئيس الأمريكي بوش وزعيم " القاعدة " بن لادن ؛ معتبرة إياهما " وجهان لعملة واحدة " وينتميان من حيث الفكرة التي تحكم كل واحد منهما إلى نفس العائلة . على إثر نشر هذا المقال تولى قارئ الأخبار المعروف في شبكة التلفزيون (ARD) أولريش فيكارت نشر مقال في مجلة (Max) [٦] يدور حول رأي الكاتبة (Roy) وخلص إلى ما خلصت إليه من أن بن لادن وبوش لهما نفس التركيبة الفكرية (Denksrtukturen) ثم وصف بوش وبرلسكوني بأنهما معاديان ولا يتصفان

عنوان المقال : إرهاب الإعلام !!	الكاتب : سمير الجملي

بالتسامح (Intoleranz) معلقاً بذلك على التصريحات المعروفة لهذا الأخير ، ثم تساءل في المقال نفسه : لماذا لم يحرك الغرب أي ساكن حينما كانت المذابح تدور في راوندا والتي أودت بالألوف المؤلفة ، وقامت بها أنظمة مدعومة من جهات غربية إما مباشرة وإما بالإقرار السلبي- السكوتي ؟! فكيف كان رد فعل مجتمع الحريات ؟! لقد تعرض فيكارت إلى هجمات من إعلاميين ومن سياسيين على حد سواء ؛ فقد بادرت رئيسة الحزب المسيحي الديمقراطي (CDU) (أنجيلا ميركل Angela Merkel) [٧] إلى التنديد بما قاله فيكارت والمطالبة بإقصائه وإبعاده من وسائل الإعلام ، ورأى الكاتب العام للحزب المسيحي الاجتماعي (CSU) (توماس كوبل Thomas Goppel) في هذا إساءة إلى الوجه الخارجي لألمانيا ، وتمنى على الشبكة التي يشتغل معها فيكارت اتخاذ الإجراءات اللازمة لتأديبه . وقد كتب الكثير عن " جهل " السيد فيكارت وإلا فكيف يقارن رواندا بما حصل في نيويورك !! وكيف يقارن بوش بابن لادن . وبعد تفاعلات كثيرة لا يتسع المجال لتفصيلها اضطر فيكارت إلى اتخاذ موقف حاول فيه التقليل من معاني مقاله المذكور ، واعتذر عما كتب وسحب كلامه جملة وتفصيلاً[٨]، لماذا لم يقع كل هذا الجدل على غرار تصريحات برلوسكوني المهينة للإسلام والمسلمين مثلاً ؟!

٢- وأما الصورة الثانية التي أود عرضها حول التناقض الصارخ الذي تعامل معه الإعلام الألماني بشكل عام مع الأحداث ، فعلى إثر هجمات ١١ سبتمبر كان هناك ما يشبه حالة الطوارئ الإعلامية ، إذ قطعت وسائل الإعلام كلها بثها العادي وجُنِّدت كلها للحديث والكتابة عن " الإرهاب " ، حتى أن بعض المعلقين تحدث عن حالة تُحاصر فيها وسائل الإعلام المشاهد والقارئ ولا تترك له المجال لشيء آخر ، حتى تحول هذا بدوره إلى إرهاب ، ولكنه هذه المرة إرهاب إعلامي ، أما حينما كانت القنابل المحرمة دولياً تطير في سماء كابل وأفغانستان ، فقد كانت نفس وسائل الإعلام تلك تبث أفلام هوليود وبرامج الفكاهة !! . لماذا لم يتحرك العالم المتحضر في مذابح ومجازر أخرى ؟ ربما يجيب عن هذا السؤال تعليق أحدهم حينما قال : إن على الدول الغربية أن تضيف في دساتيرها بنداً يقول : سكان ما يسمى بدول الجنوب هم كذلك بشر .

٣- صورة أخيرة أسوقها هنا وتتعلق بكيفية استقبال وسائل الإعلام لقرار المحكمة الدستورية بتاريخ ١٤ كانون الثاني/يناير الجاري المتعلق بالسماح للمسلمين بالتذكية الشرعية للذبائح كما تمليه عليهم ديانتهم ،

عنوان المقال : إرهاب الإعلام !!	الكاتب : سمير الجملي

ففي حيثيات المحكمة (تعليلاتها) أثبتت بأن الدولة ملزمة باحترام " مقتضيات " الديانة أو العقيدة ، وهذا مبدأ قانوني مهم يعطي المسلمين الحق في حل معضلات أخرى يعانون منها ، ومع هذا يُركِّز الإعلام على مبدأ " حرية العمل " كتعليل تبني عليه المحكمة قرارها وإبرازه دون غيره [٩] .

وأخيراً فإن سؤالين لا مهرب من طرحهما :

أولهما : ما فائدة الضمانات القانونية مهما كانت قوتها إذا أخفقت في حماية رجال الإعلام وضمان جو من حرية إبداء الرأي ؟ وهل يحق لألمانيا الافتخار بعد هذا بفصول لم يقع إعمالها عند الحاجة إليها ؟

وثانيهما : كيف يمكن التوفيق بين هذا القمع الإعلامي أو الإرهاب الممارس - على المسلمين - من جهة وبين الإرادة التي يعبر عنها القادة السياسيون بشكل لا يتجاوز الاستهلاك الدعائي الإعلامي من ضرورة خوض حوار حضاري وثقافي مع المسلمين ، وإيجاد جو من التفاهم الشعبي (Voelkerverstaendigung) ، والتنوع الثقافي (Multikulturell) في المجتمع الألماني ؟

إن المسلمين الذين وجدوا أنفسهم - فجأة - مدعوين إلى مسؤوليات تتجاوز حتى إمكانياتهم ؛ كالحوار مع المجتمع والتعريف بالإسلام ، يدخلون هذه المعركة في جو من الأحكام المسبقة ساهم الإعلام في تركيزها لدى الرأي العام الألماني ، أو لنقل يدخلون هذا الحوار في جو من الإرهاب الإعلامي والنفسي المفروض عليهم .

الهوامش :

(١) Entscheidung des Bundesverfassungsgerichts - Amtsversammmlung [10] 86,1

(٢) Die Frankfurter allgemeine Zeitung - Do.: 04.10.2001, Nr. 230/S. 3 -

*Von fleissigen Schueler zum mutmasslichen Terroristen *

(٣) Die Neue Zuericher Zeitung -Fr.: 05.10.2001, Nr. 231/S. 151- (internationale Ausgabe)

Patriotismus statt Zynismus - Von Christa Piotowski

(٤) Die F.A.Z. - Do.: 27.09.2001, Nr. 225 - AFP Meldung/S. 2

(٥) Die F.A.Z. - Fr.: 28.09.2001, Nr. 226

(٦) مجلة ماكس الصادرة في هامبورغ في بداية اكتوبر ٢٠٠١م

(٧) Die Bild Zeitung - Do.: 04.10.2001

(٨) ARD - Mi.: 03.10.2001 - Tagesthemen

(٩) انظر مثلاً : Die F.A.Z. - Mi.: 16.01.2002 , Nr. 13